فيه ولا تعارض بينهما والجمع بينهما أن يقال الحديث الذي في سبيله خطاب للعوام لأنه مقتضى
الحكمة وعادة الله تعالى أبدا إنما يخاطبهم بما تقتضيه الحكمة والقرآن في ذلك مثال في ذلك قوله
تعالى ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون إلى غير ذلك من قوله بما عملتم بما كسبتم بما أسلفتم بما تعملون
إلى غير ذلك وهو كثير والخطاب في الحديث الآخر لأهل الخصوص وهم المتمكنون في التوحيد
المتحققون بالقدرة ولو قيل لمن لم يتحقق بالقدرة هذا الحديث لأدى به الأمر إلى ترك مقتضى الحكمة
وترك العمل بمقتضى الحكمة كفر بإجماع وإن اعتمد على القدرة و العمل بمقتضى الحكمة وإن جهل
القدرة فإيمان محض ويدخل في ذلك قوله تعالى لهم قدم صدق عند ربهم والنهاية هو الجمع بين
مقتضى الحكمة وتصحيح العمل وإجلال القدرة بتفويض الأمر لها وأن يقال إن الأعمال هو سبب لدخول
الجنة ثم إن التوفيق للأعمال والهداية للإخلاص فيها وقبولها برحمة الله تعالى وفضله فصح أنه لم يدخل
الجنة بمجرد العمل وصح أنه دخل بالأعمال أي بسببها وهو من الرحمة فدخول الجنة برحمة الله تعالى والدرجات
بحسب الأعمال وقد قال بعض الفضلاء اعمل عمل من لا يرى خلاصا إلا بالعمل وتوكل توكل من لا يرى خلاصا
إلا بالتوكل تحضيضا منه على قدم النهاية وتنبيها ولأجل العمل على هذه الصفة أثنى عز وجل في كتابه
على يعقوب عليه الصلاة والسلام حيث قال وإنه لذو علم لما علمناه لأنه جمع بين الحقيقة والشريعة وسيأتي
ذكر ذلك وأبينه في موضعه من أواخر الكتاب إن شاء الله تعالى الرابع والعشرون قوله وسألوه عن الأشربة
الأشربة في اللغة تنطلق على كل شراب عدا المحرم لأن المحرم عندهم يسمى بالخمر والأشربة المعهودة
عندهم هو ما كان من نبيذ التمر ونبيذ الزبيب وغير ذلك مما فيه مصلحة لهم وفي سؤالهم عن
الأشربة دليل على أنه بلغهم في بعضها تحريم أو نهي لأنه لو لم يبلغهم في ذلك شيء لما سألوه
عنها وفيه زيادة دليل لما قدمناه من أنهم كانوا مؤمنين قبل قدومهم الخامس والعشرون قوله
فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع فيه دليل على أن الجواب لا يكون إلا بعد تمام الخطاب لأنه عليه الصلاة
والسلام لم يجاوبهم حتى تمموا جميع سؤالهم السادس والعشرون فيه دليل على أن الفصيح من الكلام
الإجمال أولا ثم التفسير للإجمال بعده لأنه عليه الصلاة والسلام أجمل أولا ثم بعد ذلك فسر ما أجمل
الراوي وهو ابن عباس
والحكمة في ذلك

١٧٨

والحكمة في ذلك أنه عند الإخبار بالإجمال يحصل للنفس المعرفة بغاية المذكور ثم تبقى متشوفة إلى
معرفة معناه فيكون ذلك أوقع في النفس وأعظم في الفائدة السابع والعشرون قوله أمرهم بالإيمان
بالله وحده فيه دليل على أنه يبدأ من الجواب بما هو الأهم والآكد لأنه عليه الصلاة والسلام بدأ أولا بالأصل
الذي هو الإيمان ثم بعد ذلك أجاب عن الغير الثامن والعشرون فيه دليل لقول من يقول إن الكفار
ليسوا بمخاطبين بفروع الشريعة لأنه عليه الصلاة والسلام لم ينص على الأعمال حتى أثبت الإيمان
التاسع والعشرون قوله قال أتدرون ما الإيمان بالله وحده فيه دليل على استفهام المعلم للمتعلم عما
يريد إلقاءه إليه لأنه عليه الصلاة والسلام استفهم عن حقيقة فهمهم في الإيمان ثم بعد ذلك بينه
لهم الثلاثون قوله قالوا الله ورسوله أعلم فيه دليل على التأدب والاحترام مع أهل الفضل والدين لأنهم
التزموا الأدب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فردوا الأمر إليه فيما استفهمهم عنه تأدبا
واحتراما منهم له والحكمة في ردهم الأمر إليه من وجوه الوجه الأول التأدب كما تقدم الثاني
أن سؤاله لهم منه تحقيق وتنبيه لما كان عندهم الثالث خيفة التوقع لئلا يكون زاد في الأمر شيء أو
نقص لأن الله عز وجل يحدث من أمره ما شاء بالزيادة والنقص وهذا الوجه قد انقطع بانتقال الشارع
عليه الصلاة والسلام والوجهان الأولان باقيان لأن علتهما موجودة الحادي والثلاثون في هذا دليل لما قد
مناه من أن هذا الوفد كانوا مؤمنين لأنهم التزموا الأدب بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم تسليما واحترموه
غاية الاحترام وذلك مثل ما التزم الصحابة رضي الله تعالى عنهم من التأدب والاحترام حين قال لهم عليه
الصلاة والسلام أي بلد هذا أي شهر هذا أي يوم هذا قالوا الله ورسوله أعلم وقد أقروا في هذا
اللفظ له بالوحدانية وله عليه الصلاة والسلام بالرسالة الثاني والثلاثون قوله قال شهادة أن لا إله
إلا الله وأن محمدا رسول الله فيه دليل لمن يقول إن الواجبات الإيمان دون نظر ولا استدلال لأنه عليه
الصلاة والسلام لما ذكر لهم الإيمان لم يذكر لهم بعده نظرا ولا استدلالا الثالث والثلاثون
فيه دليل على جواز الجواب بأكثر مما يسأل عنه بل يلزم ذلك إذا كان هو الأصل الذي عليه يتفرع الجواب
وبعد منه يتفرع السؤال لأنهم إنما سألوه عن الأفعال التي توجب لهم الجنة فأجابهم عليه